مدن الحضارات
فى القديم والحديث
للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

— ٣ —

ولقد زار بغداد فى القرن الثامن الهجرى الرحالة ابن بطوطة ووصف ما كانت عليه فى وقته فذكر الجسرين ومرور الناس عليهما فى نزهة متصلة ، وذكر عدة مساجدها التى يخطب فيها وتقام فيها الجمعة ، وعدتها أحد عشر مسجداً . أما المساجد الأخرى فكانت كثيرة . ووصف حماماتها المطلية بالقار فيخيل إلى الناظر أنها مرصوفة بالرخام الأسود . وذكر جانبي بغداد الشرقى والغربى ، وقبور الخلفاء العباسيين بالرصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه

وزارها قبل سقوطها فى يد التتار الرحالة المشهور ابن جبير الأندلسى ، إلا أنه رآها على أسوأ حال وأقبح مصير ، وكانت لا تزال كما يقول بنص عبارته : « حضرة الخلافة العباسية ، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية » . فرآها « كالظل الدارس ، أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، إلا دجلتها التى هى بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين ، أو العقد المنتظم بين لبتين »

وفى الوقت الذى كانت تزدهر فيه بغداد بحضارة عربية واسعة ، وثقافة إسلامية كبيرة ، كانت تزدهر حاضرة إسلامية أخرى بألوان من الحضارات ، وتتجه إليها الأنظار من كل صوب ، ويفد إليها الشعراء والأدباء والعلماء حتى لتكاد تنافس بغداد فى المحل ، وتزاحمها فى الموضع والقدر ... تلك الحاضرة هى (القاهرة)

والقاهرة مدينة الفواطم ، وضع أساسها جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ . بعد أن تم استيلاؤه على الفسطاط . وكان فى القاهرة فى ذلك الحين طريق عام يختط وسطها من باب زويلة جنوباً . وبنى حولها السور المشهور . وكانت تقع المقس إلى الغرب وتمتد إلى النيل ، وظلت بيضاء

القاهرة إلى أن تحول مجرى النهر فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فانتقلت إلى بولاق

ومن القاهرة أخذت الدعوة الفاطمية تزداد وتكثر وتتخذ مدى واسعاً . وسكت النقود باسم الخليفة الفاطمى ، ونقش عليها (باسم مولاى المعز) . وفى مسجد عمرو دعى للمذهب الفاطمى من على منبر الجامع . وخطب فى يوم ١٩ شعبان سنة ٣٥٨ هـ هبة الله بن أحمد خليفة إمام مسجد عمرو . ودعى أيضاً فى جامع ابن طولون للخليفة الفاطمى فى يوم جمعة من ربيع الآخر سنة ٣٥٩ هـ ؛ ثم دعى فى الجامع الأزهر بعد بنائه ، وكان الدعاء فيه فى السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ ، وبعد ذلك دعى فى مسجد الحاكم

وكان فى القاهرة (مكتبة القصر) التى ذكرها المقريزى وأبو شامة وغيرهما . وقد قال فيها أبو شامة (يقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت فى القاهرة فى القصر) . وكانت هذه المكتبة تحوى النادر من الكتب . وذكر المقريزى صاحب الخطط أنها كانت فى المارستان العتيق وفيها أكثر من مائتى ألف مجلد

ولم تكن تلك هى المكتبة الوحيدة فى القاهرة ، فقد عرف عن الفاطميين حبهم للعلم وتشجيعهم للأدب وإكثارهم من إنشاء المكتبات . ولقد أنشأ الحاكم بأمر الله (دار الحكمة) وهى أشبه بجماعة علمية ، وألحق بها مكتبة تسمى (دار العلم)

وكان هناك مكتبات خاصة للأفراد ، تتسع وتعظم تبعاً لمقدرتهم ؛ ومكتبة ابن كلس الوزير المشهور أحق ما يذكر فى هذا المقام . وكان ابن كلس هذا مجدوداً فى النعمة ، واسعاً فى الثروة ، وكان له دار يجتمع فيها عنده القراء والأئمة ، والغلمان والحاشية ، وفيها ميضأة منظمة وثمانى غرف للنوم ، وديوانه الخاص الذى أسماه (العزيزية) تيمنا باسم العزيز الفاطمى .

ولما كان ابن كلس يهودياً وأسلم ، كان لليهود دالة فى عهده ، بل كان لهم شأن كما يذكر المؤرخون . ولقد أثارت محاباتهم شعور الاستياء عند المسلمين ؛ فقد رأوا لهم الحكمة والنفوذ ، والمنزلة والجاه ، والقربى والشفاعة (لأسباب صهرية) ورأوا المسلمين بعيدين من كل خير ، مُنْشَأين عن كل منزلة ،

فحرّك هذا بعض الشعراء بالكلام ؛ فقال الرضى بن البواب :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهمُ ومنهم المستشار والملك
يأهل مصر إنى نصحت لكم تهوّدوا ، قد تهود الفلك ! !

وكان الغنى فى أيام الفاطميين شاملاً ، والثروة واسعة ، وأغلب هذه الثروة بالطبع فى أيدى الخلفاء وأبنائهم . وكان للمعز لدين الله وبنتيه ثروة تحتاج إلى أربعين رطلاً من الشمع لختمها

ولقد زار مصر فى عهد المستنصر الفاطمى سائح فارسي مشهور هو ناصر خسرو ، وكان ذلك فى عام سنة ٤٣٩ هـ . فوصف ما شاهده ورآه فى كتابه (سفرنامه) ، وقد أضفى على مشاهده ألواناً من الخيال الجميل الذى أوتى منه حظاً كبيراً فقد كان الرجل شاعراً وأديباً ، وهو يذكر أن القصر الفاطمى كان فيه ثلاثون ألف جارية ، واثنا عشر بهواً ، وعشرة أبواب ، وألف حارس . ويصف دور القاهرة فى ذلك الزمان بأنها (محكمة البناء مبنية بالحجر لا بالآجر ، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة)

كانت القاهرة طيلة حكم الفاطميين مصونة محفوظة لهم ولأولادهم وحرمهم وخواصهم والمقدمين من جنودهم ؛ ولكنها فى عهد الأيوبيين تغيرت حالها من الصيانة إلى الابتذال ، وتدلت أمورها من الخواص إلى العوام ، يسكنها الجمهور ، وأصبحت دور الفواطم ذوات الحدائق الغُنّ حارات وشوارع ومسالك وأزقة ؛ وعمر حيّ القلعة ، وحافتا الخليج الكبير ، وما دار على الحسينية . وظلت مصر والقاهرة تتسعان حتى صارتا بلداً واحداً يشتمل على : (البساتين ، المناظر ، القصور ، الدور ، الرباع ، القياسر ، الأسواق ، الفنادق ، الخانات ، الحمامات ، الشوارع ، الأزقة ، الدروب ، الخطط ، الحارات ، الأحكار ، المساجد ، الجوامع ، الزوايا ، الربط ، المشاهد ، المدارس ، التربات ، الحوانيت ، المطابخ ، الشون ، البرك ، الخلجان ، الجزائر ، الرياض ، المتنزهات) . المقريزى ج ٢

وظلت القاهرة كذلك إلى أن حدث الفناء الكبير فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة فخرب كثير من هذه المواضع ، وتبع ذلك خراب صعيد مصر وجلاء أهله عنه . وقد أدرك هذه الخرائب والأطلال المقريزى وأشار إليها فى خططه

ويظهر أن بعضاً من المؤرخين كانوا يتحاملون على القاهرة لحاجة فى نفوسهم ، فلا ينصفونها إذا وصفوا ، ولا يقدرونها إذا تكلموا . وقد يجسّمون فيها المعايب ، ويهوّلون فيها المثالب . ومن هؤلاء أبو الحسن على بن رضوان الطبيب ، فقد نقدها نقداً مراً ؛ وذكر كثرة الأوساخ والأقذار فيها ، وكثرة العفونة فى مياهها ؛ ثم ذكر نظام « المجارى العامة » فيها وما يجره على السكان من عفونة ووباء . والحق أن ابن رضوان نظر إلى القاهرة نظرة الطبيب الصحى أو (مفتش الصحة) ، فغلا فى نقدها وأسرف فى ذمها .

ومن الذين لم تعجبهم القاهرة ابن سعيد صاحب كتاب : « المغرب فى حلى المغرب » ، فقد سمع عنها كثيراً ، فلما رآها استكثر الأخبار عنها وقال بنص عبارته : « هذه المدينة اسمها أعظم منها . وكان ينبغى أن تكون فى ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين »

وما أشبه هؤلاء المتحاملين من العرب المتجنين على مصر بالمتحاملين اليوم من الفرنجة عليها ! فهم يتكرون منها كل منظر حسن ومشهد جميل ، ويسجلون عليها غير ذلك

استمع إلى ابن سعيد هذا وهو يصف القاهرة فى تحامله وتجنيه : (ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه أمراء الدولة وهو فى موكب جليل ، وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ، ووقف الوزير ، وعظم الازدحام ، وكان فى موضع طباخين ، والدخان فى وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد يهلك المشاة وكدت أهلك فى جملتهم . وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال والمبانى عليها من قصب وطين) انتهى .

على أن شيئاً واحداً لا تنساه القاهرة للفاطميين ، وهو الحفلات الكثيرة المختلفة التى كانوا يقيمونها فى الجمعة والأعياد والولائم والمناظر وليالى الوقود التى تسبق أول ومنتصف رجب وشعبان وحفلات توديع الحملات الحربية التى سجلها كثير من شعراء ذلك العصر وخاصة عمارة اليمنى شاعر الفواطم المشهور .

(الحديث موصول) محمد عبد الغنى حسن